ماكس إشترنر

MAX. STIRNER

فيلسوف الأنانية

١٨٠٦ — ١٨٥٦ م

للدكتور جواد علي

ولم لا تكون للأنانية فلسفة وفلاسفة ، والأنانية من أهم الغرائز التي لعبت دوراً هاماً في الحياة البشرية ؟ لعبت دورها في حياة الأفراد كما لعبت دورها في حياة الأمم . وليس بعجيب إن أصبحت « الأنانية » موضوعاً هاماً من موضوعات الفلسفة ، وهدفاً أو مثلاً أعلى لبعض المذاهب الفلسفية ، بل محور فلسفتها تدور حولها جميع أبحاثها كالذي يلاحظ عند « الأبيقوريين »[1] أو عند كثير من فلاسفة القرن الثامن عشر وبعض فلاسفة الإنكليز أمثال فرنسيس هيتجسون (Francis Hutscheson ١٦٩٤ — ١٧٤٦)[2] ، وبرميا بنتام (Jeremy Bentham ١٧٤٨ — ١٨٣٢)[3] ، وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill ١٨٠٦ — ١٨٧٣)[4] وغيرهم

غير أن كاتبنا شيد ، أو ماكس اشترنر كما كان يلقبه إخوانه التلاميذ في المدرسة لعلو جبهته واتساعها ، كان قد جاوز حدود هيام هؤلاء بالأنانية وتفانيهم فيها وضرب رقمهم القياسي بأضعاف . أعلن للناس أنه صب بالأنانية متيم ، وأنه جاء إليهم برسالة جديدة وديانة جديدة : هي ديانة الأنانية ومحبة الذات ... ديانة قويمة فوق كل الديانات . إنها السعادة الأبدية للجماعات والأفراد ؛ وإنها مفتاح اللذة ؛ وإنها الطريقة المثلى للوصول إلى الكمال الإنساني وما يتمناه كل فرد من هذه الحياة . هي طلسم السعادة والكبريت الأحمر الذي أفنى الحكماء أنفسهم عبثاً للوصول إليه ، وكيمياء الحياة

مفتاح هذا العالم في نظرية ماكس إشترنر كلمة « أنا » ؛ ولكن كلمة « أنا » هذه لا تدل على معنى مجرد ، بل على شخصية معينة ؛ بواسطة هذه الشخصية عرف الكون والوجود . كل ما في الكون هو « أنا » وما عداي وهم وخيال . أنا خلقت الأسماء ، وأنا خلقت المصطلحات ، وأنا الذي وضعت تلك التعابير التي لا وجود لها في الحقيقة . وأنا الذي سجنت نفسي بيدي . خلقت تلك المعايير الأخلاقية والمقاييس الأدبية فقلت : شرف ووطنية وإنسانية وديانة وأخلاق وفضيلة إلى آخر ما هنالك من كلمات جوفاء[1] —

قيدت البشرية نفسها منذ خلق العالم بقيود فرضتها عليها جماعة من الأنانيين الأقوياء الذين مثلوا دور « أنا » خير تمثيل ... استغلوا عقول السذج البلهاء ، والسواد الأعظم من البلهاء ، فخلوا وحرموا ووضعوا القيود الأدبية والحواجز الأخلاقية والاجتماعية . أطاعتها المجتمعات الإنسانية حتى اليوم ، وأدخلت نفسها طوعاً واختياراً أو خوفاً ورهبة في عداد العبيد وطبقات الأرقاء . صارت تقاد كما يقاد قطيع الغنم أو البقر إلى المجازر باسم الوطن والشرف والدفاع عن العرض أو العقيدة والمال ، إلى غير ذلك من الكلمات التي « فبرقتها » معامل أولئك الأنانيين ، وأنتجتها أفواه أولئك الحكام الجبابرة العتاة . وما التاريخ البشري — سوى عبودية دائمة من هذا النوع[2]

---

(١) أتباع الفيلسوف اليوناني إبيقور Epikur (٣٤١ — ٢٧٠ ق.م) أحسن من كتب عن مذهبه وأتباعه Russwurm والفيلسوف Kreisbig و H. Schmidt

(٢) فيلسوف إنكليزي راجع عنه Wilhelm Dibelius في كتابه England ج ١ ص ١٦٦

(٣) نفس المصدر وكذلك Oskar Kraus في كتابه المطبوع عام ١٩٢٦ و H. Schmidt ص ٢٠

(٤) نفس المصادر مضافاً إلى ذلك Sänger لسنة ١٩٢١ و Langel في تاريخ الفلسفة المادية جزئين لسنة ١٩٢٦

(١) يذهب الفيلسوف في الأسماء والكلمات مذهب « الاسميين » الذين يقولون بأن الأسماء لا وجود لها في الخارج Nomina Lismus أمثال : يوحنا دوسيلينوس (١٠٥٠ — ١١٢٠ م) وأنسلم الكانتربري (من ١٠٣٣ — ١١٠٩ م) راجع قاموس الفلسفة لشميد ص ٤٥٠ . وقصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٣ ، ١٤ . وكتاب الفيلسوف دريوس ص ٢٣ ج ٢

(٢) انظر Diehl Die Somialismus Jena Sl 1911. S, 112

يقول : لو حللنا الأعمال البشرية بجميع أنواعها وألوانها تحليلاً علمياً لوجدنا « الأنانية » هي الدافع الأول في جميع حركات الإنسان . هي الأول، وهي كل شيء . هي الحقيقة الأولى، وهي الحقيقة الأخيرة . هي التي صورت لي العالم بهذه الصورة . وهي التي جعلت الإنسان يبني ويشيد ويشتغل . لو جردنا ما نسميه في قاموسنا « العالم » من أنا، أو الأنانية لما بقي شيء من هذا الذي سميناه عالماً . ولذلك فالحقيقة واحدة وهي حقيقة « أنا » . تدرك هذه الحقيقة ما يحيط بها بواسطة منبعين : منبع الإدراك أو التصور Vorstellung ومنبع الإرادة Wille[1]

فما دام الأفراد الأنانيون هم الذين وضعوا تلك القيود في سبيل منافعهم الشخصية ومآربهم الذاتية ؛ وما دامت الأنانية هي الغالبة على كل عمل إنساني ، فلم يستمر الفرد على تحمل تلك العبودية ؟ ولم يذعن لتلك القيود التي قيد بها جبراً ؟ ساقت هذه النتيجة المنطقية إشترنر إلى البحث عن الحرية : حرية الأفراد، وما يملكه الفرد، فوضع كتاباً في هذا المعنى سماه « الفرد وما يملك »[2] تهجم فيه تهجماً شديداً على القيود الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي تحكمت وظلت تتحكم في عصره ، وشن حرباً شعواء مقدسة على المبادئ الدولية وعلى كل شيء عام يطلق عليه وصف بشري ، وعلى الحكومات التي انتزعت سلطة الأفراد، وعلى الشيوعية التي ناوأت الملكية الفردية ، وهي أقدس حق من حقوق الإنسان . سخر من المجتمع ومن تكاليف المجتمع بعبارات لاذعة لم يعرف مثلها في أي كتاب من كتب العالم

كان للشاعر الأديب الإنكليزي « برنارد مندويل »[3] Bernard Mandeville صاحب كتاب « أسطورة النحل » The Fable of the Bees or Privāte Vices Made Public Benefits

(نشر لأول مرة في عام ١٧١٤ م) قد صرح في كتابه بلا خوف ولا وجل بأن « الأنانية » هي الدافع الوحيد للانسان على أعماله الروحية والمادية ، وأن جميع القيود الأخلاقية أو الإنسانية أو الدينية لا قيمة لها أبداً ؛ لأنها من وضع الحكام الذين توخوا تأمين السيادة . غير أن كتاب ماكس إشترنر كان قد جاوز كتاب مندويل الإسكتلندي في التهكم والتهجم على أخلاق المجتمع وجميع الأنظمة البشرية القائمة بأضعاف !

كان كتاب « الفرد وما يملك » عنوان ثورة جديدة أراد أن يؤجج نارها ذلك الفيلسوف : ثورة الفرد على المجتمع ، ثورة الفرد على الحكومة . فشارك الديمقراطيين بالفكرة ، وكان في طليعة جماعة الاشتراكي اليهودي لاسال[1] ؛ إلا أنه اختلف عنهم بالأسلوب . نرى ماكس ديمقراطياً من رأسه إلى أخمص قدميه ، ولكنه ديمقراطي فردي يريد أن يشيد بناء ديمقراطياً على أساس السلطة الفردية : يريد أن يرى البشرية مجموعة أفراد، كل فرد من هذه المجموعة يتمتع بحريته وذاته ، هو نهم لا يشارك الآخرين ولا يرضى بأن يشاركه أحد . غايته التمتع بالحياة إلى آخر حدّ ، وأن ينفرد بكل شيء ؛ لا يفكر إلا لنفسه ، ولا يبالي بما يفعل الآخرون . شعاره لا تهمني إلا نفسي[2]

كل سلطة تتحدى سلطة الفرد يجب أن تقاوم وتهدم . وحيث أن الحكومات تحاول دائماً التعدي على حريات الأفراد ومجال عمل الأفراد ، فهي سلطات استعبادية ودوائر تفرض الرق على البشرية فرضاً بواسطة صكوك وأوراق تحبرها تطلق

---

(١) انظر فندلبند Windelband Lehrbuch. s, 564 f ويظهر أن كاسير شيد قد أخذ فكرته عن منبعي العلم الانساني من الفيلسوف الشهير شوبنهور فيلسوف التشاؤمين وهو صاحب كتاب Die welt als wille und vorstellung وقد نشر لأول مرة في عام ١٨١٩م

(٢) Der Einzige und Sein Eigentum نشر لأول مرة في عام ١٨٤٥م

(٣) طبيب إنكليزي وفيلسوف عاش بين ١٦٧٠ — ١٧٣٣ م . أثرت أفكاره على الوسوعيين للفرنسيين « الانسكلوبيديين » راجع عنه Prof. Voigt Die Somial Utopien s, 134 و Schmidt ص ٣٨٩

(١) Otto Ziegler Die Geistigen Berlin 1899 ص ٥٨٠ . وقد تزعم فرناند لاسال حركة العمال الألمان وكانت له مناظرات مع كارل ماركس مؤسس المذهب المنسوب إليه . ولد عام ١٨٢٥ وتوفي عام ١٨٦٤م .

(٢) Ziegler s, 580 وكذلك Karl Diehl über Som. s. 113

عليها الصيغ الشرعية . لذلك تبرم الفيلسوف من الحكومات وعدّ نفسه من ألدّ أعدائها ، ولكنه كان من ألدّ أعداء النظام الشيوعي كذلك ؛ إذ بينما الشيوعية تحطم ملكية الفرد وتندد بالملكية الخاصة ، نرى (إشترنر) يندد بالملكية العامة ويدعو إلى الملكية الخاصة

يرى أنه ما دامت الأنانية هي الصفة الغالبة في الطبيعة ، وما دامت حركات الإنسان وسكناته كلها حركات منبعها الأنانية ، فمن الحماقة التغاضي عن هذه السنة الطبيعية ، والالتجاء إلى الأحلام الذهبية الشعرية ؛ وقد دلت الأحوال على أن كل محاولة من هذا النوع كانت فاشلة ، وأنها ترتد داعماً إلى الأنانية الفردية .

ثم من ذا الذي يضمن للانسان عدالة أولئك الذين سيقومون بالإشراف على المجتمع العادل ؟ لذا ، فأنا وحدي صاحب الحق في الملكية ، ولي الحق كل الحق في الامتلاك ، وعليّ أن أتفاهم مع الآخرين في هذا الحق ، فإذا خالفوني على حق هذا التزمته ودافعت عنه بكل قواي لأجبر الآخرين على الاعتراف بهذا الحق ، ولكن الملكية مع ذلك غير مقدسة ، إذ لا قدسية في العالم إلا للحق والسيطرة فقط[1]

وبدلاً من هذه الحكومات والتشكيلات الشيوعية ، يجب تشكيل جماعات من الأنانيين الأحرار الذين لا يرتبطون فيما بينهم بروابط أو حقوق طبيعية أو روحية كالتي يطلقها عليها اتباع النظريات الأخرى . يكوّن الأفراد جماعة لا تحاول امتلاك الأفراد ، بل يحاول الأفراد امتلاك الجماعة ، والرابطة الوحيدة التي تربط الفرد بهذه الجماعة هي رابطة « المنفعة » ، وعلى كل فرد أن يبذل كل ما في وسعه لاستغلال الجماعة إلى آخر ما يمكن . فإن حاولت الجماعة استغلال الفرد ثار عليها . وهذا في زعمه هو الفرق بين العبودية والحرية . ففي المجتمعات الديمقراطية أو الشيوعية تحاول الجماعة السيطرة على الفرد ، ولكنها في مجتمع ماكس اشترنر يسيطر الفرد في زعمه على الجماعة

لا قيود في هذا المجتمع ولا فروض . لكل شخص عقيدته وديانته ، لا تهمه إلا نفسه ، ولا يشتغل إلا لنفسه فقط . فإذا تحققت هذه الأمنية على زعم فيلسوفنا تحققت الحرية وتحققت معها السعادة البشرية وتحقق كل شيء . أما الفكرة العالمية — أو البشرية أو الدولية فيسائل الفيلسوف نفسه عنها : ما الذي أربحه من الاعتقاد بهذه الآراء ؟ وما الذي استفيده منها ؟ ثم يجيب : لا بأس من أن أساير الناس وأن أوافقهم موافقة رجل حذر ، ولكن موافقة رجل حكيم أعدّ لكل شيء عدته ، يحاول جهد الإمكان الانتفاع من هؤلاء السذّج . فإن انعكست الآية نفر من تلك الجماعة ونبذ ذلك المجتمع الفاسد . والحرية هي تجريد النفس من كل القيود والحدود التي تعوق إرادة الفرد وتحاول — منعه من استغلال أنانيته ولو أنها كلمة جوفاء في حد ذاتها . وبعملنا هذا نكون قد أدركنا حقيقة الحرية . والجندي الشجاع مثلاً هو الذي يستطيع أن ينجو بنفسه من الحرب ؛ فلا يضحي بنفسه في سبيل أطماع نفر من جزّارى البشرية إن ربحوا تقلدوا الأوسمة ودخلوا القصور الفخمة ، وإن خسروا انسحبوا إلى مملكة أخرى أو إلى القصور الهادئة وعاشوا عيشة السادة المترفين . في حين أن الجندي المسكين بطل المعركة إن مات مات فقيراً تاركا وراءه عائلة تبكي ، وإن عاش عاش فقيراً كذلك لا يهتم بشجاعته أحد

سخرت الأوساط الأدبية من آراء ماكس إشترنر ومن كتابه « الفرد وما يملك » وعلى الأخص الشيوعية منها ، فنشرت جريدة الراين « دانيشه تزايتنك » جريدة كارل ماركس نبي الشيوعية مقالات تهكمت فيها من نظرية اشترنر ؛ وانبرى أمثال كارل كرين Karl Crün وموذس هيس Moses Hess ، ونفر آخر من محرري الجريدة فنشروا رسالة بعنوان « آخر الفلاسفة » سخروا فيها من الفيلسوف ومن آرائه

(١) Die Gessel Schaft 1910 Zieder s, 580